

طفل مختلف

في عمر عام ونصف، بدأ بعض الناس يلمحون، أو يصرحون، أن «آدم» لديه سمات توحد. كان يبكي ويصرخ إذا تغير أي شيء في الروتين الذي اعتاد عليه، مثلاً، في الاستحمام، إذا استبدلت غسل الشعر وغسل الجسد، كان ينهار من البكاء. مثال آخر، في المطبخ، إذا استبدلت مكان فوطة تنشيف الأطباق وفوطة تنشيف يدي، كان ينهار ويصرخ حتى أعيد كل شيء إلى مكانه. مثال ثالث، كان «آدم» يعرف شنطة يدي، إذا حملها أبي، مثلاً، كان يصرخ حتى يتركها. كانت مواعيد نومه وطعامه مقدسة. كان مكان الشبشب والحذاء والبوْجة مقدسًا. لم يكن مسموحًا لأحد بتغيير أي شيء.

ظل «آدم» هكذا إلى أن أتم عامه الثالث. طوال هذه الفترة، كانت «سمات التوحد» تسيطر على عقلي. كنت أحاول أن أجد سببًا منطقيًا لتصرفاته وتأخره اللغوي وحركته غير المتزنة. كان طفلاً سعيدًا. كنت أمًا قلقة. كنت خائفة. كنت تائهة. مرة تقودني القراءة إلى «سمات التوحد»، ومرة تقودني إلى «سيندروم آينشتاين»، ومرة إلى «أسبرجرز»... كنت أعرف أن هناك مشكلة بطفلي ولكنني لم أعرف ماهيتها بعد.

أما د. «ماريا مونتيسوري»، فذكرت في كتبها خمسة أشياء يجبها الأطفال بالفطرة:

- الأطفال يحبون النظام والترتيب من حولهم، كما يحبون كل فرصة للحفاظ على النظام في بيئتهم. الطفل المنظم ينشأ في بيئة منظمة ويحافظ على النظام.
- الأطفال لا يحبون اللعب أو اللعب! الأطفال يحبون القيام بأعمال جادة من واقع الحياة.
- كذلك يفضلون استخدام الأدوات الحقيقية عن البلاستيك.
- يختار الطفل العمل في هدوء أو صمت تام، وأول خطوات استقلاله هي الاعتناء بنظافته الشخصية واحتياجاته.
- الطفل لا يتعلم من خلال تلقي مكافأة أو عقاب! الطفل يتعلم من خلال وجود فرصة لتصحيح أخطائه.

قد يكون نمط نمو طفلي غير تقليدي، ولكن هذا لم يجعلني أتعامل معه على أنه غير قادر على إعادة لعبه إلى مكانها أو العناية بنفسه. بدلاً من التلفزيون، أشركت «آدم» في الأعمال المنزلية البسيطة، حتى وإن فاقت قدراته، يكفيه شرف المحاولة. وفرت له أدوات حقيقية مناسبة لحجمه بدلاً من الأدوات «الخاوية» التي لا تشبع احتياج الطفل للعمل والمشاركة.

في ظروف سليمة موائمة يستطيع طفل عمره سنتان غسل يديه ووجهه وتنشيفهم بفضة خاصة به بدون الاعتماد على أحد. يستطيع نفس الطفل مسح أنفه بمنديل إذا عطس وتنشيف الأرض إذا انسكب منه ماء. هناك العديد من الأشياء يستطيع الطفل أن يفعلها إذا توفرت لديه مساحة من الحرية وفرصة للتعلم. الطفل يتعلم عندما تتوفر لديه الحرية لاختيار نوعية العمل الذي سيقوم به، والمواد التي سيعمل بها. اتركوا للطفل حرية الاختيار بين تصفح قصة أو رسم لوحة أو الزراعة أو قص الورق أو تقطيع الفاكهة. اتركوا للطفل مساحة كافية ليتعلم وليخطئ وليتعلم من أخطائه.

من خلال تعاملها مع الأطفال، أدركت د. «ماريا مونتيسوري» عدة حقائق مهمة كانت بمثابة الأعمدة الأساسية لنهجها:

- يجب ملاحظة ومراقبة الطفل عن قرب.

- كل طفل مختلف في الاحتياجات والشخصية والقدرات والمهارات.
- بناءً على مراقبة الطفل، ووضع قدراته واحتياجاته الفردية في الاعتبار، يتم اختيار الأنشطة والألعاب الملائمة له.
- أفضل وسيلة لتعليم الطفل شيئاً ما هي القيام بهذا النشاط أمامه عدة مرات ثم دعوته للمحاولة بنفسه.

كنت محظوظة جداً! عندما علمت بحملي، وبعدها عندما بدأت أقرأ كتب ومقالات د. «سيرز»، كانت أقصى أمنية لي أن أتمكن من إرضاع «آدم» ستة أشهر، قبل أن أضطر للبحث عن عمل. تحققت المعجزة، ومنحني الله فرصاً عديدة للعمل من المنزل، انتهزتها كلها! أعمل من المنزل حتى يومنا هذا، وتمكنت من إرضاع «آدم» ثلاث سنوات كاملة، حتى فطم نفسه بنفسه. خلال تلك السنوات الأولى من رحلتي مع «آدم»، كنت أعمل عدة ساعات فقط في اليوم، وكنت أحاول أن تكون هذه الساعات أثناء نوم صغيري. طوال فترة استيقاظه، لم أفعل شيئاً سوى النظر إليه، مراقبته، فهمه، تقديم الأنشطة التي يحتاجها، ومشاركته اللعب. في قرارة نفسي، كان الشكر والحمد يسري في جسدي لأنني لم أكن أستطيع أن أكون أمّاً غير تلك التي كنتها!

في هذه الفترة، بعدما أتم «آدم» عامه الثاني، من خلال احتكاكي اليومي به ومراقبتي له، لاحظت اهتمامه الشديد بسكين المطبخ. بدلاً من نهره وتعنيفه، قدمت له نشاطاً ملائماً: تقطيع موزة باستخدام سكين الزبد، سكين غير حاد ولكنه حقيقي. ندهت «آدم»، وقلت له، اليوم، «آدم» سيقطع معي الموز. قدمت له سكين الزبد، وقلت له إن هذا السكين الخاص به. انتبه وهدأت حركته. جلست أمامه وتحركت ببطء شديد، أعطيته الفرصة ليرى يدي المسكة بالسكين، ويدي الأخرى التي تثبت الموزة، ثم بدأت أقطع الموزة بالتصوير البطيء وهو يشاهد كيف تتحرك السكين لتقطع الموزة. جعلت هذا نشاطاً يومياً حتى يتقن طفلي مهارة التقطيع، مع تطوره، بدأت أقدم له أشياءً أكثر صلابة، وسكيناً أكثر حدة، مثل التفاح أو الخيار.

نفس الشيء انطبق على فضوله تجاه المقص والأجهزة الكهربائية، مثل المكينة والغسالة والكبة والخلاط. بدلاً من الرفض، كنت أسأل نفسي كيف يمكن أن أتيح لـ«آدم» الفرصة

ليستغل شغفه بشيء ما في تنمية مهاراته! بعد الملل والزهق الذي عاناه «آدم» في أول سنة من عمره، حتى بدأت أطبق معه أنشطة المونتيسوري، أصبحت حياتنا معاً ممتعة. هكذا نمت مهارات «آدم» في التواصل واللغة «الاستقبالية»، أن يفهم ما يقال له، ومهارات استخدام يديه وأصابعه، الحركة الدقيقة.

الأصل في المونتيسوري هو الطفل، ليس الأنشطة! لا تفرضوا على صغاركم الأنشطة التي تقرءون عنها، راقبوهم وقدموا لهم أنشطة ملائمة لاهتماماتهم وقدراتهم ومستوى مهاراتهم الحركية. علموهم ما يريدون أن يتعلموا واعطوهم فرصاً كثيرة للتكرار.